مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : ...-..... Issn : 2353-043X
المجلد 04/ العـدد 02: (2017)، ص 136- 152

نظرية الصبغة بين البنية والدلالة في الإسلام

الدكتور فارح شيخ محمد
لندن (بريطانيا)

ملخص:

هذه دراسة وصفية تحليلية مختصة عن نظريات التعلم وتعليم اللغات عند علماء العرب القدامى .

ركزت هذه الدراسة على آراء خمسة من علماء العرب. هم بشر بن المعتمر الفارابي والغزالي و ابن خلدون، وآراء جماعة إخوان الصفاء. وتهدف الدراسة أولا، الى التعرف على النظريات في تعلم اللغات وتعليمها عند علماء العرب القدامى وأنواعها. وثانيا، إلى استكشاف أصول الاكتساب ومبادئه على غرار الأصول الحديثة في تفسير التعلم، ولتحقيق هذه الأهداف استعرضت الدراسة آراؤهم على سبعة أبواب. يتناول الباب الأول الأصول المنهجية للدراسة، وكيفية سيرها، وتناول الباب الثاني نظريات التعلم الحديثة، مفهومها ومبادئها وأنواعها، كما يتناول إشارات إلى آراء أربعة من العلماء العرب، اثنان من المعاصرين، وهما عباس محمود العقاد والدكتور أبو الفرج العش، تقديما لبحث نظريات تعليم اللغات وتعلمها عن العرب القدامى، واثنان من القدامى، وهما الشاطبي وابن حزم الظاهري، واستعرضت الدراسة في الأبواب الخمسة الباقية وصفا وتحليلا لآراء هؤلاء الخمسة في التعلم. لقد توصلت الدراسة إلى أن المبادئ الأساسية في التعلم ستة أنواع: أولا : القوى الفطرية وسلامتها مثل الطبع والفطرة والوارثة والاستعداد والدوافع . ثانيا : الأصول المعرفية مثل: الفكر والفهم والإدراك والتخيل والعقل والذكاء وثالثا: المبادئ الذاتية مثل: الممارسة والتعود والتكرار لصناعة اللغة. ورابعا: الأصول البيئية وهي : المحيط الذي يقع فيه تعلم اللغة من استماع ومشاهدة واحتكاك من العالم الخارجي، وخامسا : التعليم . إن من أساسيات التعلم عند علماء العرب القدامى

وجود التعليم، وهو مفهوم التعليم واسع يشمل على المنهج والمعلم والأهداف، وسياسة التعلم والتعليم و تحديد المستويات، ويرون أن هذه الأصول هي العمود الفقري للتعلم، كما هي ضرورية لتحصيل اللغة، وينبغي الاشارة الى أن تعلم اللغة يكون

في ضوء هذه الأصول، وترى هذه الدراسة ضرورة مواصلة الأبحاث التربوية اللغوية في هذا المجال عند الآخرين من علماء العرب القدامى لتكميل الفائدة والاستفادة بآرائهم في التعلم وتتكون نظريات تفيد اكتساب المعرفة .

Abstract:

This study to following the descriptive analytical, methodological approach and theory which had done by five pioneer Arabic scholars such as:Bishr bin Al mutamir, Al farabi, Jamaa, al ikhwaan alsafa,Alghzali, and Ibni Al khaldun.The study has been adopted the descriptive and analytically methods to investigate and interpretation of learning and principal used by some pioneer Arab scholar. The method which adopted by the researcher appropriate to deal with the principal, and classification. The study aims at understanding the factors which effected acquisition of language and learning. The study used six indicators to evaluate the effect of acquisition of learning to analysis their opinions of learning. The six indicators are natural part such as: natural bower, innateness, genetic, aptitudes. The principal of knowledge for instance, imagination, thinking, understanding, guessing, mentally and intelligence. The principal of social environment is the medium which the learning take please to develop skills such as listening, watching ,understanding and interaction. Self learning:

for example practicing, preparing and repeating for using language. The objectives of language learning to find out language structure, and ability of using the language properly understanding and performance. Teaching of the language considered as the part of acquisition language.In order to achieve the above objectives, the researcher reviewed the opinions of the pioneer Arabic scholars based on descriptive and analytical approaches for the classification and analysis. Therefore, the learning, components of psychologically, behavior, psychological innateness, cognitive, and the language developing the attitudes and behavior. The results of this study revealed that the pioneer scholars believing of the principal of learning language and acquisition which are the whole similar to the principal of psychologically acquisition mentality, environmentally and basic principal. Moreover, the sciences of language focusing on principal of learning as a whole as long as the modern theories of the learning.Furthermore, the study showed that the component of the language and mental power are differences from the pioneer scholar as

the component produce from the principal in order to become attitude, behavior, and knowledge should be follow the rule of human acquisition. Finally, the study showed that opinions and ideas old to those pioneer scholar. Accordingly, they believe that the language is attitude, behavior, components, cognitive and this component acquisition is different from language component as well as mental power as it is innateness of acquisition language component.

لا شك أن القرآن معجز في حروفه وتراكيبه وأحكامه، ومعانيه، وقصصه، ومن معجزاته أنه كلما تتجدد علوم ومعارف الإنسانية كلما تتجدد نواميسه المعرفية والعلمية، ويكشف العلماء كوامن وكنوزا جديدية فيه، فلا وصف بعد وصف من أنزل عليه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم (كما ورد في الأثر "كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه " ([1])

وفي هذا المقال سنتناول مفهوم الصبغة في قوله تعالى (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) سورة البقرة 138) في بعدين :

البعد الأول: البنيوي التركيبي والدلالي، والبعد الثاني: البعد المعرفي والتربوي والديني في حلقتين، الحلقة الأولى تركز على الصبغة عند المفسرين دراسة تاريخية تطورية تحليلية. أما الحلقة الثانية فتركز على الصبغة ومبادئ تكوينها بين التربية والتعلم والتعليم، ولقد ورد لفظ الصبغة في القرآن بالمعنى الذي أردنا أن نتناول في المقال ثلاث مرات: أحدهم: هذه الآية 138) والأخرى في قوله تعالى: (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) في سورة لقمان،الآية) والثالثة في قوله تعالى (وصبغ للآكلين) في سورة المؤمنون الآية 20. ([2]) . وجاء لفظ الصبغة في القرآن مرتين في حرف الصاد المهملة، وحرف السين المهملة مرة واحدة في ضمن عبادات كونية كبرى، التي تستدغي الحكمة

(1) رواه الترمذي(2908) والدارمي(435/2) والبغوي في شرح السنة)1181(
فيه الحارث الأعور الجمهور على توهينه، والصحيح أنه موقوف على علي.
([2]) الآية ، سورة البقرة، 138

التعرف عليها، وهي قوله تعالى: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) سورة لقمان ، الآية . ([3])

أما الصبغة في سورة البقرة فقد جاء السياق بمعنى الايمان والعبادة والحسن والجمال، وبهذا المعنى في ضمن سياق الآيات الكونية والمعرفية ، والإيمان بالله ورد معنى الصبغة أيضا بالسين الكونية كتنبيه للإنسان بوجود الله سبحانه وتعالى، وأن الله أوجد في الإنسان قوة فطرية صبغ فيه منذ الخلقة الأولى، وهي من نعمه التي لا تعد ولا تحصى من لغة ومعرفة وتفكر وفهم وتدبر بالآيات القرآنية والكونية والأنفس فطريا .

ويذكر المفسرون سبب نزولها هذه الآية بأن أهل الكتاب حرفوا معاني الصبغة إلى معاني بعيدة عن الجادة، وردّ الله عليهم مبينا للأمة المعنى االصحيح للصبغة ، إذ أن هذه الأمة لها استغلاليتها المعرفية في فهم الكتاب والسنة من خلال هذه اللغة المباركة العريقة ، وبما أن اللغة العربية لها مبادئ تؤسس معانيها بنفسها، فالسياق يكون ضمن الفهم العربي لكون اللغة وعاء المعرفة والعلم، وهي المعاني البنوية والتركيبية والدلالية، ونظرا للمعنى اللغوي أولا في المعاجم العربية للصبغة ، ثم ماذا قاله المفسرون في فهمهم لها، وبناء على هذا المنهج تسير مبادئ التعلم والتعليم وأثرها على تكوين الصبغة.

الجوهري : (توفي عام 393 هـ - 1003م) اسماعيل بن حمّاد، هوعالم لغوي، يكنى بأبي نصر، أصله من «فاراب»، وهو أول من حاول الطيران، ومات في سبيله، ينظر الصبغة من الناحية الاشتقاقية الصرفية ويقول: "الصبغة بكسر الصاد أصلها هو الشيء الذي يصبغ به على وزن فِعل من الفعل الثلاثي، واسم الهيئة على وزن فِعلة، ملحقة بعلامة التأنيث لإرادة الوحدة مثل: قِشرة وكسرة وفلقة. (الجوهري، الصحاح ([4])

ابن منظور (630 – 711 هـ 1232 - 1311) أما ابن منظور فهو أديب وإمام اللغة العربية وآدابها، فقد تناول الصبغة بشكل مفصل بجوانب لغوية وأخرى معرفية، وأورد آثارا كثيرة حول الصبغة، نكتفي منها بالجانب اللغوي فيقول:" الصبغ والصباغ

---

1) الصحاح للجوهري ، مادة صبغ

([4]) (الجوهري، الصحاح

والصبغة مايصبغ ويلون به الثياب، والصبغ المصدر والجمع أصباغ وأصبغة، واصطبغ اتخذ الصبغ، والصبّاغ اسم الفاعل الذي حرفته الصباغة- مادة صبغ " ([5])

إن هذا المعنى المشار إليه معجميا للصبغة تبنى عليه دلالات أخرى، سواء أكانت دينية، أو أدولوجية، أوفكرية أومعرفية أواجتماعية، إذ لم تزل العرب تستعمله في لغتها إلى اليوم بهذا المعنى مع التغيير والتطور الكبير الذي وقع على اللغة العربية الفصحى.

وفي السياق نفسه يقول معجم المعاني في اللغة : الصِّبْغَةُ الهيئة المكتسبة بالصِّبْغ، وهي ما يُصبَغ ويغير بالشئ، وهي مادَّة تُستخدَم للتلوين، ويقال: صِبْغَة حمراء أوصفرء أوسوداء، والصِبْغَة هي الشَّباب أي القوة والحماسة والاندفاع، كما هي ميل إلى اتِّجاه فكري أواجتماعي أومعرفي أوسياسيَّ، وتقول الصبغة العلمانية انتشرت بين أوساط الأمة الإسلامية، وحلت محل الإسلام، والصِبْغَة هي الفطرة التي خلق الله الناسَ عليها، والدين والشريعة ، إذا المعنى الدلالي والمعرفي والاجتماعي للصبغة هو تغيير الشيء من حال إلى حال مثل: صبغ الثوب إذا غيّر لونه، أو أزيل عن حاله الأصلي إلى حال من سواد أوحمرة أو صفرة أو غير ذلك،معجم المعاني مادة صبغ. ([6])

المعاني التركيبية والبيانية للصبغة وهي الاستفهام: ورد السياق القرآني في الآبة الكريمة متضمنا معنى بين الاستفهام الانكاري، واسم التفضيل المقارن بين شيئين بأيهما أفضل بقوله (ومن أحسن من الله صبغة) ؟ فالاستفهام إنكاري، ومعناه أنه لا أحد أحسن من الله في شأن صبغته، فهو البارئ والخالق والمصور ، وأحسن التقويم في خلقه، كما أحسن الصبعة .

أما التركبة النحوية للصبغة فإن الصبغة منصوبة على التميز على أكثر الأقوال وهي تمييز نسبة، محول عن مبتدأ ثان، وقال أبو حيان وقبل أن يذكر النحاة نوع التمييز، وهو التميز المحول عن المبتدإ ، فقد يأتي التمييز المحول بإيجاز بديع، إذا حذف من التركيب كلمتان، وبقي دون لبس ولا خلل بالسياق والمعنى، وهذه من بلاغة كتاب الله العظيم" (البحر المجيط) 5 - ومن هذا التركيب النحوي الجميل يأتي المعنى الدلالي المفعم بالاستعارات والتشبيهات المتعددة، والتخيلات الرائعة، فالمعاني البيانية للصبغة هي التشبيه المتعدد الأوجه كتشبيه الإيمان والإسلام والقيم ، والدين بالصبغة

([5]) لسان العرب ، ابن منظورة ، مادة صبغ

([6])معجم المعاني العربي ، مادة صبغ

بالألوان والأشكال على شكل الاستعارة التي علاقتها المشابهة، والمشاكلة من المحسنات البديعية، ومرجعها إلى الاستعارة، وإنما قصد المشاكلة أيضا باعث على الاستعارة، وإنما سماها العلماء المشاكلة لخفاء وجه التشبيه، فأغفلوا أن يسموها استعارة، وسموها المشاكلة، وإنما هي الإتيان بالاستعارة لداعي مشاكلة لفظ بلفظ وقع معه ، وشبه ذلك صبغة الله الذي هو دين الله، وفطرته بما تفهم عقولنا (البحر المحيط) الآية ([7]) .

المفسرون والصبغة :

الصبغة عند ابن جرير الطبري ((224 هـ - 310 هـ - 839 - 923م) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، إمام من أئمة المسلمين من أهل السنة والجماعة. ومؤرخ ومُفسر وفقيه مسلم، وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، ويعتبر من أكثر علماء الإسلام تأليفًا وتصنيفًا، وهو مرجع المفسرين وخصوصا المدرسة الرواية، أما الصبغة فقد مر بنا المعنى الدلالي لها، وهو تغيير الشيء من حال إلى حال مثل: صبغ الثوب إذا غيّر لونه، أو أزيل عن حاله الأصلي إلى حال عارض من سواد أوحمرة أو صفرة أو غير ذلك عند علماء اللغة، وفي قوله تعالى (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) . ومن المعروف في علم التقسير أن المفسرين ينتمون إلى مدرستين أساسيتين : إحداهما مدرسة الرواية، وهم جل علماء السلف، وثانيهما مدرسة الدراية، وقد تكون مدرسة ثالثة بينهما وهي مدرسة الجمع بين علم الرواية والدراية، ومن الواضح أن شيخ المفسرين محمد ابن جرير الطبري ينتمي إلى مدرسة الرواية أكثر من مدرسة الدراية، وقد يجمع بينهما أحيانا، ولهذا يقول في تفسير الصبغة مرة صبغة الله، دين الله ، فطرة الله، الملة، وصبعة الإسلام وكلها معان متقاربة قليلا : " بالصبغة صبغة الإسلام، وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصر أطفالها جعلتهم في ماء لهم، تزعم أن ذلك لها تقديس بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام ، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقد ذكره الله تعالى إذ قالوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين (كونوا هودا أو نصارى تهتدوا)". ابن جرير الطبري ([8])

الصبغة عند الرازي: 250 هـ 923 م :

([7]) تفسير الطبري ، سورة البقرة، آية 138

([8]) ابن جرير الطبري، آية 138

عالم وطبيب مسلم من أعظم أطباء الإنسانية على الإطلاق في عصره ، حيث ألف كتاب الحاوي في الطب،الذي يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام (925م) وظل المرجع الطبي الرئيسي في أوروبا لمدة (400) عام، درس الرياضيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب والتفسير وعلومه وفاق أقرانه، ولقد تبين معنى الصبغة عند علماء اللغة، بمعناها المعرفي والأديولوجي ففسروا الصبغةبالألوان والأشكال،ثم المعنى الديني بالفطرة، أو الدين بمعناه العام، وعند ابن جرير الطبري خصوصا، وهذا المعنى كان عند علماء الرواءيين من عبد الله ابن عباس إلى محمد ابن جرير الطبري، لكنه حدث ما يشبه التطور عند الرازي الذي جاء بعد ابن جرير بحوالي ستة وعشرين سنة، إذ أخرج مفهوم الصبغة من المعنى الذي كان يفسرها به وهو الفطرة إلى معاني معرفية في أول مرة، فالصبغ هي ما يلون به الثياب، وصبغ الثوب يصبغه - بفتح الباء وكسرها وضمها ثلاث لغات - صبغاً بفتح الصاد وكسرها لغتان. (والصبغة) فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ" ([9]) التفسير الكبير- مفاتيح الغيب .

جمع الرازي أقوال المفسرين للصبغة، وجعلها ثلاثة أقوال في مجملها، وقلل تفسير الرواية الذي كان يجعل الصبغة بالفطرة أو ما معناها، ثم ذكر بعض العلل لتفسيرات العلماء بالدين فقال : "وذكروا في أنه لِمَاذا سمي دين الله بصبغة الله وجوها : أحدها : أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم وإذا فعل الواحد بولده ذلك قال الآن صار نصرانياً ، فرد الله تعالى على هذه المعنى المنحرف للصبغة، وبين لهم المعنى الصحيح لها، فقال الله تعالى: اطلبوا صبغة الله وهي الدين، والإسلام لا صبغتهم، والسبب في إطلاق لفظ الصبغة على الدين طريقة المشاكلة كما تقول لمن يغرس الأشجار وأنت تريد أن تأمره بالكرم: اغرس كما يغرس فلان تريد رجلاً مواظباً على الكرم "الرازي ." وهذا تفسير الإسلاميين من المفسرين القدامى، وهو معنى عقدي معرفي أساسه التدين من اليهود، ثم تبعه النصارى كعادتهم، وهو مما قاله الرازي **وثانيها**: " أن اليهود كانت تصبغ أولادها يهودا، وتبعها النصارى تصبغ أولادها بنصارى، بمعنى يلقونهم فيصبغونهم بذلك لما يشربون في

([9]) التفسير الكبير، مفاتيح الغيب للرازي

قلوبهم، لكن السبب الوجيه لتسمية الصبغة للدين هو المشاكلة والتشابه بين المؤثر والأثر من خلال الممارسة وهو مما يقول الرازي أيضا وثالثها: سمي الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة، فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله تعالى ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله، وبين الدين الذي اختاره المبطل ظاهرة جلية، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذي الحس السليم " التفسير" ([10]) الكبير أو مفاتيح الغيب للرازي .

أما القول الثاني الذي يفسر الصبغة بالفطرة فهو من باب تفسير آية الصبغة في سورة البقرة بآية الروم (فطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ) الروم الآية 30) أما القول الثالث عند الرازي : فهو أن صبغة الله هي الختان، الذي هو تطهير، أي كما أن المخصوص الذي للنصارى تطهير لهم فكذلك الختان تطهير للمسلمين (([11]) .

وبعد أن ذكر هذه الأقوال لتفسير الصبغة عند المفسرين يقول: " إن الإنسان موسوم في تركيبه وبنيته بالعجز والفاقة، والآثار المشاهدة عليه بالحدوث والافتقار إلى الخالق، فهذه الآثار كالصبغة له وكالسمة اللازمة- وصِبْغَةَ ٱللَّهِ - على الفطرة، فهو مقارب في المعنى، لقول من يقول: هو دين الله لأن الفطرة التي أمروا بها هو الذي تقتضيه الأدلة من عقل وشرع، وهو الدين أيضاً، لكن الدين أظهر لأن المراد على ما بينا هو الذي وصفوا أنفسهم به في قوله (قُولُواْ ءامَنَّا بِٱللَّهِ) كأنه تعالى قال في ذلك: إن دين الله الذي ألزمكم التمسك به فالنفع به سيظهر ديناً ودنيا كظهور حسن الصبغة، وإذا حمل الكلام على ما ذكرناه لم يكن لقول من يقول: إنما قال ذلك لعادة جارية لليهود والنصارى في صبغ يستعملونه في أولادهم معنى، لأن الكلام إذا استقام على أحسن الوجوه بدونه فلا فائدة فيه ولنذكر الآن بقية أقوال المفسرين " ([12]) .

([10]) التفسير الكبير- مفاتيح الغيب، للرازي ، سورة البقرة، الآية 138

(2) المرجع السابق

(1) المرجع السابق

ومن الواضح أن الرازي لا يرى نفسير الصبغة بالدين فقط، وإنما تشمل العقل والقوى الفطرية، لإن الإنسان محتاج إلى فاطره وبارئه وهو معنى أشمل مما كان عند ابن جرير الطبري رحمهما الله.

الصبغة عند البغوي (ت **510** هـ) البغوي هو إمام حافظ وفقيه ومجتهد، اسمه محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي"، أحد علماء الذين خدموا القرآن والسنة النبوية الإسلامية، دراسة وتدريساً، وتألبفا، وينتمي البغوي من المدرسة الرواية للتفسير ، وكعادة علماء الرواية يرجع تفسيره إلى ابن عباس في روايات الكلبي وقتادة والحسن البصري ، وهي عبارة عن صر أقوالهلم المتقاربة إن لم تكن متحدة قائلا : (صبغة الله) قال ابن عباس في رواية الكلبي وقتادة والحسن : دين الله ، وإنما سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل لأن المتدين يلزمه، ولا يفارقه كالصبغ الذي يلزم الثوب، وقال مجاهد : فطرة الله ، وهو قريب من الأول ، وقيل سنة الله ، وقيل أراد به الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم ، وقال ابن عباس هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يقال له المعمودي وصبغوه به ليطهروه بذلك الماء مكان الختان، فإذا فعلوا به ذلك قالوا : الآن صار نصرانيا حقا فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى (([13]) "وترك الموضوع من عدم الترجيع أو اختيار واحد من الأراء لكنه يرى أن الصبغة لكونها تدينا تظهر على المتدين كما يظهر الصبغ على الثوب، ولم يشعل باله الاستتعارة أو المشاكلة عند البيانيين، وهو الذي تهتم هذه الدراسة، كيف يكون الصبغ ومبادئه على الإنسان من وجهة التعلم أو التربية .

الصبغة عند الماوردي :364 - 460 هـ) الماوردي هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، أكبر قضاة آخر الدولة العباسية، ومن أكبر فقهاء الشافعية،ألّف في فقه الشافعية موسوعة ضخمة أكثر من عشرين جزءًا، ويعد الإمام الماوردي ممن يجمع المدارس الثلاثة في علم التفسير أحيانا، وهي مدرسة الرواية والدراية والجمع بينهما، وتجد أنه يفسر الصبغة بالرواية مرة، ثم يقول برأيه مرة أخرى، وهي أنها خلقة الله في الإنسان، وأنه مكون من قوى فيسولوجية طبيعية، ومن قوى دماغية عقلية

([13]) تفسير البغوي ، شورة البقرة، الآية 138

وفكرية وشعورية، فالصبغة عنده تشمل كل ما قاله علماء الرواية مع صفة وجود خلقة الإنسان قائلا (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) " فيه تأويلان أحدهما: دين الله، وهو قول قتادة، والثاني: أن صبغة الله، هي خلقة الله، فإن كانت الصبغة هي الدين، فإنما سمي الدين صبغة، لظهوره على صاحبه، كظهور الصبغ على الثوب، وإن كانت هي الخلقة فلإحداثه كإحداث اللون على الثوب"([14]) (تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل) سورة البقرة، 138.

الصبغة عند البيضاوي : (675 ه) هو ناصر الدين أبو سعيد، عبد الله بن أبي القاسم عمر، من أعلام أوعية العلم والمعرفية، وهو ممن يجمع التفسير بين المدرستين الرواية والدراية إذ هو من علماء الأصول واللغة، فالهداية، والعلم والمعرفة والإرشاد جبلة المؤمن وخلقه وسجيته، فلا يفرق بين الفطرة والصبعة ، لكنه يبين كيفية صبغة المؤمن، وقد يكون هذا المعنى الذي يشير إليه البيضاوي قريبا لما هو مقصود من التربية والتعلم والتعليم، ويرى أن الصبعة هي الدين لكنه يفسر أعمق من العموميات التي هي عند المدرسة الرواية للصبغة ، وهي ان الصبغة فطرة وجبلة، فالمؤمن مصّبغ بالإيمان فيه، هداية وإرشادا وحجة وعلم ومعرفة، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وجاء به إلى هذه الدنيا كصفحة بيضاء نقية، ومهيئ للإيمان والعلم وقبول الحق والعبادة بقوله تعالى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون). وبهذا المعنى فإن صبغة الله كصبغة اللون بالثوب، وصبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ مع الثوب، أو للمشاكلة، فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم " ([15]) .

الصبغة عند الألوسي : (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (1270ه 1803م) ويعد الآلوسي من علماء التفسير لمدرسة الدراية لعلم التفسير، وعلى شاكلة

([14])تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، سورة البقرة، 138.

([15]) المرجع السابق .

منهج الرازي للتفسير، ومن المهتمين بالجوانب اللغوية والمعرفية للتفسير مع إشارات معرفية في ضوء الدلات اللفوية مجددا البينية اللفوية للمادة (صبغة الله) " الصبغة بالكسر، فِعلة من فعل صَبغ كالجِلسة من جلس" ([16])، ويشبه صبعة الثوب بصعة الله للإنسان في ضوء المعاني الدلالية على طريقة الاستعارة والتشبيه قايلا "وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ ، معبرا بها عن التطهير بالإيمان، بما ذكر، على الوجه الذي فصل، لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخله فيه، وصار حلية لهم، فهناك استعارة تحقيقية تصريحية، والقرينة الإضافة، والجامع ما ذكر "([17]) تفسير روح المعاني للألوسي. أما من الوجهة المعرفية عنده للصبغة فيقول : "ومن أحسن من الله صبغة أي صبغته بتطهير القلب، أو الإرشاد، أوحفظ الفطرة أحسن الأصباغ حال إخلاص العبادة له، فليس بشيء كما لا يخفى" ([18]) أكاد أجزم أن أغلي لمفسرين يسيرون على راواية ابن عباس في مفهوم الصبغة الا من شذ ومنهم اللآلوسي وهو يرى أن الصبعة مغايرة للفطرة .

(**الصبغة عند ابن عطية.** (481 هـ) هو أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر، من علماء غرناطة من أو عية العلم والمعرفة له موسوعة في التفسير ، يجمع أحيانا بين الرواية والدراية للتفسير ،ويرى أن الصبعة في سورة البقرة تفسرها الآية في سورة لقمان، وجاءت الصبغة في البقرة عامة في سياق الشريعة بقوله تعالى: " صبغة الله " شريعته وسنته وفطرته، وذلك أن النصارى لهم ماء يصبغون فيه أولادهم، فهذا ينظر إلى ذلك، وقيل: سمي الدين "صبغة" استعارة من حيث ظهور أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره ([19]) تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) سورة البقرة، آية 138 .

أما في سورة لقمان فالصبغة جاءت بحرف السين، وضمن آيات كونية بقوله تعالى : (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم

([16]) الألوسي/ روح المعاني سورة البقرة، الآية 138

([17]) المرجع السابق

([19]) ابن عطية، تفسير المحرر الوحيز ، الآية 138

اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) سورة لقمان آية 20 .) أما الصبغة عند ابن عطية فإن هذه الآية تنبيه على الصنعة الدالة على الصانع، وهو الله، وذلك أن تسخير هذه الأمور العظام كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والحيوان والنبات إنما هو بمسخر ومالك" وكذلك الصبغة هي آية من آيات الله في الإنسان.

محمد الطاهر بن عاشور (1879 - 1973) عالم وفقيه ومقاصدي ومفسر تونسي، من أسرة منحدرة من الأندلس، ترجع أصوله إلى أشراف المغرب، وكان آية في العلم والمعرفة في عصر كادت أن تغيب شمس المعرفة في الأمة الإسلامية، كما كان أول من حاضر بالعربية بتونس العربية في القرن العشرين بعد أن أصبحت فرنسية، وله مؤلفاة في غاية الدقة العلمية والموضوعية، وهي تدل على تبحره في شتى العلوم الشرعية والأدبية، ومن أجلّها كتابه في التفسير المسمى ب "التحرير والتنوير"، وفي دراستنا للصبغة عنده أنجد أنه لم يكرر عادة كثير من علماء التفسير المفاهيم القديمة التي كانت تقسر الصبغة أنها الشريعة أو الدين أوالخلق أوالفطرة، أو الختان،أوالقوى العقلية، وإنما يفسر بعض المعاني يعمق ، ويقول ابن عاشوراء: الصبغة اسم للماء الذي يغتسل به اليهود عنوانا على التوبة لمغفرة الذنوب، والأصل فيها عندهم الاغتسال الذي جاء فرضه في التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة عن الخطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته، والاغتسال الذي يغتسله الكاهن أيضا في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام " ([20]) التنوير والتحرير ، الآية 138.

أما النضارى فإنها تغتقد بأن هذا الماء هو الماء الذي غسل به الله يحي بن زكريا وهو نهر في الأردن، " وعند النصارى الصبغة أصلها التطهر في نهر الأردن، وهو اغتسال سنه النبيء يحيى بن زكريا لمن يتوب من الذنوب فكان يحيى يعظ بعض الناس بالتوبة فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن رمزا للتطهر الروحاني وكانوا يسمون ذلك معموذيت بذال معجمة وبتاء فوقية في آخره ويقولون أيضا ممعوذيتا بألف بعد التاء . ([21])

([21])ابن عطية، تفسير المحرر الوحيز ، الآية 138

([2]) ابن عاشوراء،التنوير والتحرير

وذهب ابن عاشوراء بأن الصبغة كلمة من اللغة الآرامية، ومعناها الطهارة من الذنوب، وقد عربها العرب بلغتهم " فقالوا معمودية بالدال المهملة وهاء تأنيث في آخره ويإؤه التحتية مخففة وكان عيسى بن مريم حين تعمد بماء المعمودية أنزل الله عليه الوحي بالرسالة، ودعا اليهود إلى ما أوحى الله به إليه وحدث كفر اليهود بما جاء به عيسى" ([22]).

ومع هذه المعاني الجديدة في تفسير الصبغة عند ابن عاشوراء يرى بأن الصبغة من الألقاظ الإسلامية، ومن مبتكرات القرآن الكريم قايلا : " إن طلاق اسم الصبغة على المعمودية يحتمل أن يكون من مبتكرات القرآن فإن كان إيمانكم حاصلا بصبغة القسيس فإن إيماننا بصبغ الله وتلوينه أي تكييفه الإيمان في الفطرة مع إرشاده إليه فإطلاق الصبغة على الإيمان استعارة علاقتها المشابهة،وهي مشابهة خفية حسنها قصد المشاكلة، والمشاكلة من المحسنات البديعية ومرجعها إلى الاستعارة وإنما قصد المشاكلة باعث على الاستعارة" ([23])

وفي السياق نفسه أوردت "دائرة المعارف الإسلامية أن أصل الكلمة من العبرية - ص ب ع - أي غطس فيقتضي أنه لما عرب أبدلوا العين المهملة غينا معجمة لعله لندرة مادة صبغ بالعين المهملة في المشتقات، وأيا ما كان فإطلاق الصبغة على ماء المعمودية أوعلى الاغتسال به استعارة مبنية على تشبيه تخييلي إذ تخيلوا أن التعميد يكسب المعمد به صفة النصرانية، ويلونه بلونها كما يلون الصبغ ثوبا مصبوغا " ([24]) .

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (1307-1376هـ، 1889 -1956 م) .

عالم ومفسر من الجزيرة العربية ومن منطقة القصيم، توفيت أمه، وله من العمر أربع سنوات، وتوفي أبوه وهو في السابعة من عمره، نشأ نشأة حسنة، وقد ظهر نبوغه وذكائه منذ حداثة سنه، ورغبته الشديدة في التعلم، وألف كتاب (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، ومما لا شك أن المعنى المعرفي للصبغة قد تطور عند العلماء كما تتطور المعرفة بشكلها العام، والمعارف اللغوية بشكلها الخاصة، إذ اللغة وعاء المعرفة، والمعرفة تتجدد من حين لآخر، ومفهوم الصبعة مرتبط بمعاني كثيرة من المعارف منها: الألوان والأشكال، والسلوك والفكر والقيم والأخلاق والدين اكتسابا

([3]) المرجع السابق

([4]) دايرة المعارف الإسلامية ، مادة صبغ .

وممارسة، وممن يرى بهذا المفهوم للصبغة الشيخ السعدي رحمه الله فايلا "هي الالتزام بالدين حتى يكون الدين سلوكا للمؤمن وطبعا لما يريده الله فيقول:" التزموا صِبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات حتى يكون لكم صِبغة، وصفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبةً، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور " ([25]) الأية .

ومما لا شك فيه أن المعنى الذي أشار إليه الشيخ السعدي في تكوبن الشخصية المسلمة من خلال مفهوم الصبغة هو المعنى الذي أشار إليه الأصفهاني قبله، وإن كان تفسيره قدم أنموذجا سلوكيا أكثر وضوحا في السياق السلوكي والأخلاقي الإسلامي الجميل ، ومن المعروف أن السلوك نوعان : فطري وكسبي، والفطري يحتاج إلى تنمية من خلا ل الممارسة والمجاهدة حتى يكون صبغة كصبغة اللون بالمصبوع وسلوكا وعادة، وفي ضوء هذا يقول الشيخ السعدي أيضا :" إذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صِبغة الله، وبين غيرها من الصِّبَغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثَّر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل " حتى يكون له هذا الخلق صبعة لا تنفك عنه ([26]) .

كما أكد تكوين السلوك والعادة من خلال الفطرة السليمة،وهو الذي يتمشى مع النظرية التربوية والتعلمية لتكوين العادات الجميلة وتربيتها تربية صحيحة ، لأن الإنسان يكوّن العادات بالفطرة، وبصفاؤها ونقاؤها، وهي قوة مركوزة ، وفي الحديث الصحبح الذي روى البخاري في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِه ([27]) .

([25])تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، سورة البقرة، آية 138

([26]) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

([27]) متفق عليه

إن تفسير الشيخ السعدي يجعل الإنسان يكتسب العادات جمليها وقبيحها، وتكون له صبغة وسلوكا، إذ أن الصبغة في أصل كلام العرب هي التغيير من حال إلى حال مثل صبغ الثوب إذا غير لونه وأزيل عن حاله إلى حال من سواد أو حمرة أو صفرة أو غير ذلك وهو مأخوذ من قولهم صبغوني في عينك وصبغوني عندك أي أشاروا إليك بأني موضع لما قصدتني به من قول العرب صبغت الرجل بعيني ويدي أي أشرت إليه

ركز الشيخ السعدي بالسلوك الجميل وبالممارسة والتدرب عليه، حتى يكون صبغة للإ نسان، وهو ما يسميه المجاهدة في علم النفس الإسلامي ، وفي السياق نفسه يكون السلوك المنحرف للإنسان أيضا ويكون صبغة للشخص بالممارسة والعادة " ولابد أن يتخلى من كل وصف قبيح، وصفة رذيلة وعيب، فوصفه بالصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعلي، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه يكوّن سلوكا سليما، والاعتياد بالسلوك هو الذي الخلق بطرفيه. أما في الصفات القبيحة فيقول : " فقسه بعبدٍ كَفَر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبيده" ([28]).

الصبغة أحمد مصطفى أحمد المعروف بأبى زهرة 1898 - 1974 م

عالم وفقيه وأصولي ومفكر مصري ، كان من كبار علماء الشريعة الإسلامية والقانون في القرن العشرين،تحدث أبو زهرة عن الصبغة في سياق أنها الفطرة والملة والدين الحنيف، وأن الأنبياء كلهم جاء بالصبغة، وأن الله يضبع العقيدة السليمة لمن يختاره للإيمان، وهذا التفسير لا يختلف عن تفسير المتقدمين سوى بعض الجوانب الطفيفة قايلا: " (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) سورة البقرة ، آية 138.

الصبغة هي الإيمان الجامع بالنبيين أجمعين لا يفرق بين أحد من رسله ، لأنهم جميعا يحملون رسالات ربهم إلى عباده، وهي واحدة، لإن هذا الإيمان هو دين الله تعالى ، وهو ملة إبراهيم، وهي الاشارة الوحيدة للدين الحق، فالصبغة هي الملة التي اختارها الله

([28]) المرع السابق ، سورة البقرة ، الآية 138

تعالى لعباده، وهي ملة إبراهيم ، وهي دين الله الحق الذي اصطفاه واختاره، وصح أن يكون دينه " ([29])..

والصبغة في الأصل ما يصبغ منه، ويتشربه الثوب حتى يصير لونا غير قابل للتغيير ، بيد أن هذه الصبغة في القلب يتشربها فتكون لونا ثابتا مستقرا دائما بالإيمان والإذعان يخالط مداركه ، ويتشربها قلب المؤمن كما يتشرب الثوب صبغته، لأنه مفطور على الإيمان، والإيمان في فطرته إلى أن يتدرن بالأهواء والشهوات فتطمس الفطرة ، ولقد قال تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون" ([30]).

وقد جاء المعنى القرآني للصبغة تصحيحا لمفهوم مغلوط كان عند اليهود والنصارى، يدل على الشرك والانحراف كعادتهم يحرفون الكلم عن مواضع، فأدخلوا شريعتهم معنى لا تقر به الشرايع والفطرة السليمة، فكانوا إذا ولد لهم مولودا يجعلونه في ماء للتطهير، ويقولون هذا تطهير له كالختانة، وبسبب هذا أوما شابهه نزلت الآية الكريمة، حيث قال الله عز وجل موضحا لبنبيه محمدا صلى الله عليه وسلم (صبغة الله ومن أحسن من الله صبعة ونحن عابدون) لتصحيح هذا المفهوم الخاطئ عند أهل الكتاب .

والصبعة فطرة وجبلة في المؤمن ويرى ابو زهرة من حيث التركيب للجملة أن الصبغة منصوبة على الإغراء لفعل محذوف تقديره " إلزم صبغة الله ، فإنها إيمان القلوب وزينة النفوس للمؤمنين كما يتزين الجسم بزينة الثياب الملونة بأبهى الصباغ، وإن التعبير عن الدين بأنه صبغة الله إشارة لما يفعله اليهود والنصارى من صبغ أولادهم باليهودية أو النصرانية بما يغمسونهم فيه بماء يسمى المعمودية، فإذا كان هؤلاء يعملون تلك الأعمال حاسبين أنها تصبغهم بدينهم غير الحق الذي ارتضوا ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يجعل القلوب تتشرب حب الدين الحق ، فلا تتحول ولا تتغير ولا تتبدل، وإنما يدرك جمال صبغة الله تعالى وتزيينها للقلب والنفوس الذين يوقنون بالحق ، ومن شاء الإيمان به إذا قامت دلائله ، وبدرت محاسنه " ([31]) ويربط أبو زهرة بين معاني خمسة

([29])زهرة التفاسير ، سورة البقرة ، الآية 138

([30]) زهرة التفاسير ، سورة البقرة ، الآية 138

([31]) المرجع السابق ، سورة البقرة ، الآية 138

هي الفطرة والصبعة والملة والعبادة مستشهدا بالآية " ونحن له عابدون " خاضعون له لا لسواه ، ولذا قدم " له " على " عابدون " إذ التقديم للاختصاص فلا نعبد سواه، ولا نؤمن بغيره، وقال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء " ([32])

فمعنى الصبغة في الآية مرتبط في السياق العام الذي هو الخلق والإيجاد والتسخير والشكر على النعم فكما أن الكون ظاهر وباطن فكذلك نعم الله على الإنسان لها ظاهرة وباطنة، فالمعاني المعرفية للصبغة أساسها المعانى الاشتقاقية والتركيبية والبلاغية، وكذلك المفهوم الديني عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وبهذا نجد أن مفهوم الصبغة مفهوم متشعب، منها معرفي وديني وعند كل الطوايف الدينية.

ويليه إن شاء الله تعالى الحلقة الثانية: بعوان الصبغة بين مبادئ التعلم والتعليم والتربية.

([32])المرجع السابق، سورة البقرة ، الآية 138